كافـــــــــور الأخشيـــــــــدي (٢٩٨-٣٥٧هـ/٩٠٣-٩٦٧م)

د. السنوسي موسى آدم صالح* / د. محمد المصطفى أحمد مكي** / د. عبدالماجد محمد صالح أحمد***

ملخـــص

هدفت الدراسة إلى التعرف على كافور الأخشيدي، إسمه ونشأته وسطوع نجمه ووصوله إلى الحكم ، ومن ثم صفاته وأخلاقه وألقابه وما كان بينه وبين المتنبي وآثاره وإنجازاته ووفاته. ومن أهم النتائج التي توصلت إليها هذه الدراسة، أن أنوجور قد أظهر سخطه على كافور، وبدأ الجفاء بينهما واضحاً، وخرج من الفسطاط إلى الرملة، وذلك استعداداً للتصدي لطموح كافور وعزله من مناصبه، واستعادة السلطة، فتدخلت أمّ أنوجور في الأمر، بعد أن شعرت بأن ابنها لا يستطيع التغلب على كافور، وخشيت عليه من بطشه. كما أن كافور اتهم بدس السم لأبي الحسن علي بن الأخشيد كما فعل مع أخيه أبو القاسم أنوجور من قبل. كما أن إمارة كافور على مصر كانت اثنتين وعشرين سنة، منها سنتان وأربعة أشهر استقل فيها بالملك. وحرص كافور على أن يكون بلاطه ملتقى العلماء والأدباء والشعراء الذين توافدوا عليه من جميع الأنحاء.

* أستاذ مشارك – كلية التربية (مرحلة الأساس) – جامعة السلام – السودان.
** أستاذ مشارك – كلية التربية (مرحلة الأساس) – جامعة السلام – السودان.
*** أستاذ مساعد – كلية التربية – جامعة القرآن الكريم وتأصيل العلوم – السودان.

Abstract

The study aimed to identify Kafur Al-Akhshidi, his name, his originate, his brighten and his access of governability, and from then his attributes, morals, titles, what was between him and Al-Motanbbi, his effects, achievements and his death. One of the most important findings is that Anogur has shown his worth against Kafur, and the estrangement between them has begun to become clear. He left Fustat to Ramle to be ready to confort Kafur ambition, removing him from his situation, and restoring power. So, Anogur's mother intervened in the matter after she felt that her son could not overcome Kafur, she afraid of him from his brutality just as Kafur was accused of poisoning Abu-al-Hasan Ali ibn Al-Akhshid as he had done with his brother Abu-Al-Qasim Anogor before. The Kafur's Emirate over Egypt lasted twenty-two years, including two years and four months as a tenure. Kafur was keen to make balata as a meeting point of scholars, writers, and poets who flocked to from all a round.

مقدمـــة

هو الأستاذ أبو المسك كافور بن عبد الله الأخشيدي، الخادم الأسود الخصي، جلب إلى مصر عام (٣١٢هـ/ ٩١٧م) وعمره أربع عشرة سنة وبيع باثني عشر ديناراً، اشتراه سيده الأخشيد بثمانية عشر ديناراً من مصر وربّاه وقرّبه وأعتقه ثم رقّاه فأصبح من كبار قوّاده، ولما مات الأخشيد، أقام كافور إبني الأخشيد الواحد بعد الآخر، ثم استقل بأمور مصر بعد وفاتهما، وكان يدني الشعراء وتقرأ عنده كل ليلة السير وأخبار الدول، وكان له حجّاب يمتنع عن الأمراء، وكان كريماً ذكيّاً، استطاع أن يجمع رضا المعز صاحب المغرب وبني العباس في العراق ويخدعهم جميعاً، وكان وزيره أبو الفضل جعفر ابن الفرات مهتماً بالأدب والعلم، وقيل أن بلاطه احتوى ألفاً وسبعون من الغلمان الترك، وألفين من الروم، غير المولّدين والسودانيين وكان مجموعهم أربعة آلاف غلام، وكانت له الجواري المغنيات. وقد توفي سنة (٣٥٧هـ/ ٩٦٧م) وكانت إمرته على مصر إثنتين وعشرين سنة، واستقل بالملك سنتان وأربعة أشهر. وقد مدحه الشعراء ومنهم المتنبي، ثم غضب عليه كافور فهجاه ورحل عنه.

المبحث الأول

خطة البحث

أهداف الدراسة:

إلقاء الضوء على شخصية تاريخية شابتها كثير من الضبابية والتحريف، ووضع لبنة في بناء صرح "إحياء التراث الإسلامي" .

أهمية الدراسة:

هنالك بواعث عديدة دفعت الباحثين لدراسة هذا الموضوع أهمها:

١- إبراز الدور الذي قام به كافور مع إبني الأخشيد أبو القاسم أنوجور وأبو الحسن علي وحجبهما واغتصاب سلطتهما واستقلاله بأمور مصر بعد وفاتهما.

٢- إبراز الدور الذي قام به في جانب الحياة الأدبية، من تقريب الشعراء وبذل العطايا والهبات لهم، واهتمامه بأخبار وسير الأمم الماضية .

سبب إختيار موضوع الدراسة:

تقديم صورة واضحة عن هذه الشخصية التاريخية في مختلف جوانبها السياسية والإقتصادية والإجتماعية والثقافية.

نطاق الدراسة:

تتناول الدراسة فترة هذه الشخصية التاريخية بدءاً من وصوله إلى مصر حتى وفاته. أما زمانها فينحصر في الفترة الممتدة من (٢٩٨-٣٥٧هـ/٩٠٣-٩٦٧م).

منهج الدراسة:

اعتمد الباحثون على المنهج التاريخي الوصفي والتحليلي الذي يقوم على جمع الروايات التاريخية من مصادرها المتنوعة ودراستها واستخدامها في معالجة موضوع البحث .

تنظيم الدراسة:

قسم البحث إلى ثلاثة مباحث المبحث الأول وهو خطة البحث والمبحث الثاني كافور الإخشيدي والمبحث الثالث **الخاتمة.**

المبحث الثاني

كافور الأخشيدي

كان كافور في مطلع حياته مملوكاً• بسيطاً، وعبداً خصيّاً•• أسود البشرة، وكان دميماً، بديناً ثقيلاً، ورجلاه مشوهتان، إشتراه محمد بن طغج الأخشيدي ونال ثقته، وكان يكنى (أبا المسك•••) وقد جلب إلى مصر مع عبيد آخرين سودانيين، وبيع لتاجر من تجار الزيت وقيل لرجل من أصحاب الضيع في مصر اسمه محمد بن هاشم، ثم بيع لرجل يدعى محمود بن وهب بن عباس، فاشتراه منه طغج الأخشيدي بثمانية عشر ديناراً فربّاه وأعتقه، وارتفعت منزلته عند الأخشيد لما كان يمتاز به من الذكاء والإخلاص، فصار من كبار قواده، وعهد إليه محمد بن طغج بتربية ولديه أبي القاسم أنوجور وأبي الحسن علي ثم ولاّه الأخشيد قيادة جيشه لقتال سيف الدولة الحمداني صاحب حلب، إثر استيلائه على دمشق.

وقد عوّل المسير إلى الرملة لغزو مصر، فحاربه كافور والحسن بن عبيد الله بن طغج أخي محمد بن طغج الأخشيد، وانتصرا على سيف الدولة الحمداني إنتصاراً حاسماً بالقرب من (مرج عذرا) بجوار دمشق، ودخل الجيش المصري مدينة حلب، وعقدت بين الفريقين معاهدة الصلح بنفس الشروط التي عقدت بها في أواخر أيام الأخشيد، ما عدا الجزية فقد وقف دفعها، وحصل كافور على موافقة الخليفة العباسي على تولية الأمير الصغير على مصر والشام وعلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة المنورة، كما ضم فيما بعد كل بلاد سورية، حتى مدينتي حلب وطرسوس،

• المملوك : تعني في دلالتها اللغوية " من يمتلك بقصد التربية والإنتفاع " أنظر: كيرة، نجوى كمال(دكتورة) الجواري والغلمان في مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي(٣٥٨-٩٤٨هـ/٩٦٩-١٢٥٠م) مطبعة زهراء الشرق، القاهرة،٢٠٠٧م، ص٥٧.

•• الخصي: أنه ليس رجلاً ولا إمرأة، فهو إنسان ممثّل به وأخلاقه تجمع بين أخلاق النساء والصبيان، أنظر: كيرة، المرجع نفسه والصفحة.

••• أبو المسك: أطلقت هذه الكنية من قبيل التلميح والمشاكلة ، لأن المسك أسود اللون ، وكان كافور كذلك. وكثيراً ما يستعمل العرب ذلك . قال عنترة العبسي :

فإن أك أسوداً فالمسك لوني وما لسواد جلـدي من دواء
ولكن تبعد الفحشاء عنـي كبعد الأرض من جوَ السماء

نعم. الدعابة إنما هي في إطلاق لفظ كافور عليه ، لأن الكافور أبيض وكان هو أسود اللون.. أنظر : تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ، مصر ، سورية وبلاد العرب،للدكتور حسن ابراهيم حسن ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط٤ ، ١٩٨١م ، ص ١٢٢

وبذلك عظم شأن كافور، وزادت شهرته، واستطاع أن يقبض على زمام الحكم، من غير أن تكون له سلطة تشريعية،، وكان كافور وقت وفاة الأخشيد بالشام، فأسرع بالعودة إلى مصر(١).

وصول كافور لحكم مصر:

وحينما أحسّ الأخشيد بقرب وفاته، عهد بالحكم إلى إبنه أبي القاسم أنوجور وأن يتولّى كافور الوصاية عليه، ومات الأخشيد في دمشق حيث كان يحارب الحمدانيين، بعد أن حكم حوالي ١١ سنة، وتولّى إبنه أنوجور الحكم وكان في الخامسة عشر من عمره، وأقر الخليفة المستكفي بالله العباسي(٣٣٣-٣٣٤هـ/٩١٥-٩١٦م) توليته ووصاية كافور عليه(٢).

وقد تولّى كافور الوصاية على أنوجور، وأصبح صاحب السلطة والحاكم الحقيقي لمصر، واتخذ كافور لقب "الأستاذ" فقد كان أستاذاً لولدي الأخشيد، وذكر إسمه في الخطبة، ودعي له على المنابر في مصر والبلاد التابعة لها، وأتيح له بما أغدقه من العطايا والهبات أن يكتسب محبة القوّاد والجند وكبار الموظفين المصريين(٣).

وعندما شبّ أنوجور كان قد وجد النفوذ كله بيد كافور، وبدأ العداء بين التلميذ وأستاذه، وانقسم الجند إلى فريقين: الأخشيدية – وهم مماليك الأسرة الأخشيدية وأنصارها، والكافورية – وهم أنصار كافور الذين رقّاهم إلى المناصب العالية في الدولة، ومع ذلك فقد ظل كافور على ماهو عليه، يصرف لإبن سيده راتباً قدّره المقريزي بأربعمائة ألف دينار في السنة(٤).

(١) طقوش، محمد سهيل "دكتور" تاريخ الطولونيين والأخشيديين والحمدانيين، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٨م،، ص١٨٠-١٨١.وإبن كثير، أبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية، دقق أصوله وحققه دكتور أحمد أبي ملحم ودكتور علي نجيب عطوي والأستاذ فؤاد السيد والأستاذ مهدي ناصرالدين والأستاذ علي عبدالساتر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج١، ١٩٧٧م ، ص٢٦٦. وكاشف،سيدة إسماعيل(دكتورة) مصر في عهد الطولونيين ،الهيئة المصرية العامة للكتاب،القاهرة، ١٩٨٩م، ص١٦٥.

(٢) الخربوطلي، علي حسني (دكتور) مصر العربية الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دت، ص٩٥.

(٣) ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد إبراهيم بن أبي بكر الشافعي، (ت ٦٨١هـ/١٢٨٢م) وفيات الأعيان وأنبا أبناء الزمان،ج١، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٧٧م، ص٥٤٦.

(٤) تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م) المواعظ والإعتبار في ذكرالخطط والآثار، مطبعة بولاق، القاهرة، ١٢٧٠هـ، ج ١، ص ٢٧، وطقوش، تاريخ الطولونيين والإخشيديين والحمدانيين، المرجع السابق، ص١٧٨.

وبدأ أنوجور يتخذ خطوات عملية لاسترداد سلطته المسلوبة، فأراد الخروج إلى الشام سنة (٣٤٣هـ/٩٥٤م) وربما كان يرمي بذلك إلى إعداد جيش يزحف به على مصر للتخلص من كافور بحد السيف، ولكن أم أنوجور سعت إلى مصالحتهما خوفاً على ولدها من بطش كافور، فتصالحا. وظل أنوجور مسلوب السلطة، لا يملك من الأمر شيئاً، حتى مات سنة(٣٤٩ه/ ٩٦٠م)، فحملت جثته إلى بيت المقدس ودفن بالقرب من أبيه. ويتهم بعضهم كافوراً بأنه سعى إلى موت أنوجور، فإن كراهة أنوجور لهذا المغتصب كانت غير خافية، وقد دبّر له كافور المكائد والحيل للتخلص منه، ولذا يقال إن كافوراً سقاه السم. على أنه من الصعب أن نقبل هذه التهمة على علاّتها، فقد عرف كافور بالعفة وكرم الخلق، وذلك عندما ذكر أحمد بن طولون في مجلس كافور بأنه أحصى من قتل أو مات في حبسه، فكانوا ثمانية عشر ألفاً، فاستعاذ كافور بالله من هذا الأمر ورفع يديه يدعوا الله أن يجعل أضعافهم في ديوان إحسانه وصلاته. على أنه من الجائز أن كافوراً لما عرف بنية أنوجور رأى أن يعجّل بقتله، حرصاً على حياته وإبقاءاً على مركزه، وإذا أخذنا بهذا الإحتمال، فمن الجائز أن يكون كافور قد انتحل طيبة القلب سياسة منه لاجتذاب قلوب الناس إليه[١].

ولا شك أن كافوراً كان مشغوفاً بالإمارة، ولوعاً بالسلطة، فإنه لما تولى أبو الحسن علي بن الأخشيد الحكم بعد أخيه أنوجور، ظل كافور يباشر الأمور بنفسه، على الرغم من أن الوالي الجديد كان عمره ٢٣ سنة، وأقره الخليفة المطيع بالله على حكم مصر والشام والحجاز، واستمر كافور محتفظاً بالنفوذ والسلطة، وحجر على إبن الأخشيد ومنعه من لقاء رعاياه، وظلّ محجوراً عليه وأسيراً في قصره، لا عمل له إلا الصلاة واللّهو، وعيّن له كافور كما عيّن لأخيه من قبل أربعمائة ألف دينار في كل سنة وبقي أبو الحسن على ذلك إلى أن مات سنة (٣٥٥هـ / ٩٦٦م) بالعلّة التي مات بها أخوه من قبل[٢].

(١) ابن سعيد ، علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ /١٢٨٦م) المغرب في حلى المغرب ، تحقيق زكي محمد حسن وسيدة إسماعيل كاشف وشوقي ضيف ، جامعة فؤاد الأول ، القاهرة ، ١٩٥٣م ، ص ٤٦- ٤٩.

(٢) الخربوطلي ، مصر العربية الإسلامية ، مرجع سبق ذكره ، ص ٩٦.

ومن ثم كان الوارث للعرش ولد صغير يدعى أحمد بن أبي الحسن علي، فحال كافور دون تعيينه بحجة أنه غير صالح للحكم لصغر سنه، وبقيت مصر بغير أمير حوالي شهر، وفي المحرم سنة (٣٥٥هـ/٩٦٦م) أخرج كافور كتاباً من الخليفة العباسي بتقليده ولاية مصر، وأظهر الخلع التي وصلت إليه من الخليفة، فنودي به والياً على مصر وما يليها من البلاد، فلم يغيّر لقبه "الأستاذ" ودعي له بعد الخليفة على المنابر، وظل على رأس الحكومة الأخشيدية زهاء سنتين وأربعة أشهر (١٠ صفر سنة ٣٥٥هـ—٢٠ جمادى الأولى سنة ٣٥٧م) ويصف المؤرخون عهده بأنه كان عهداً أسوداً، توالت فيه المصائب على مصر، وتعرضت بلاد الشام لغارات القرامطة الذين نهبوها وقبضوا على قافلة مصرية كبيرة تحتوي على عشرين ألف جمل، كانت ذاهبة إلى مكة لأداء فريضة الحج سنة (٣٥٥هـ/٩٦٦م) ووقعت بمصر زلازل مروّعة وشبّت نيران هائلة دمّرت حوالي ١٧٠٠ منزل من منازل الفسطاط، وأغار ملك النوبة على مصر فجأة وعاث فساداً في البلاد الواقعة بين الشلال الأول وإخميم، فأحرق بعض المدن وقتل أهلها بالسيف ونهب أموالهم، وكان أشد هذه الأهوال انخفاض ماء النيل، ففي أواخر عهد الدولة الأخشيدية انخفض النيل انخفاضاً دام تسع سنين (٣٥١-٣٦٠هـ/٩٦٢-٩٧١م)، وبقي حتى أيام الفاطميين، وقد قاست البلاد الأمرّين مما أصابها من القحط والوباء، واشتدّ الغلاء، وندر وجود القمح، وفشا الموت بحالة عجز معها الناس عن تكفين الموتى ودفنهم، وقد ذكر بعض المؤرخين أن عدد الموتى بلغ ستمائة ألف، وأنه كان يلقى بجثثهم في النيل لكثرتها، وقد تبع انخفاض النيل اضطراب الأعمال الحكومية، وانتشار المجاعات والأوبئة، فنهبت المحاصيل وعمّ السلب والنهب، حتى إن كافوراً لم يستطع أن يدفع أرزاق الجند[١].

وعندما وقع ذلك الزلزال العظيم بمصر، خاف الناس وهربوا إلى الجبال، ودخل محمد بن عاصم الشاعر على كافور وهو في موكبه، فأنشده قصيدة عظيمة

(١) حسن، حسن ابراهيم "دكتور" تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، مرجع سابق، ص١٢٤.

منها هذا البيت:

ما زلزلت مصر من خوف يراد بها •• لكنها رقصت من عدله طرباً

فلما سمع كافور ذلك أجازه على هذه القصيدة بألف دينار . وكان كافور يدني الشعراء ويجيزهم، وكانت تقرأ عنده في كل ليلة السير، وله ندماء، وكان عظيم الحرمة، وله حجَاب، وله جوار مغنيات، وله من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف، وكان كثير الخلع والهبات، خبيراً بالسياسة، فطناً ذكياً، جيد العقل داهية(١).

ومما وقع له أنه كان جالساً بين حاشيته في يوم عيد، فدخلت عليه طائفة من التكرور وهم يرقصون ومعهم طبل وطنبور ويصيحون، فلما رقصوا بين يديه طرب منهم وحرّك كتفيه ثم أنه استدرك، فصار يحرّك كتفيه في كل ساعة من الليل والنهار، دفعاً لما قد تجرّه هذه الحركة من نقد الناس وسخريتهم به، حتى لا يعتقدوا أنه إنما فعل ذلك من أجل هذا الطبل أو الطنبور حتى مات، وقال: هذا مرض يعتريني(٢).

واستطاع كافور أن يبقي على النظام الذي ساد مصر منذ عهد الأخشيد، وكانت له شخصية قوية، فوفق إلى حدّ كبير في كسب رضا مولاه الأخشيد في السابق، الأمر الذي جعله يصل إلى هذه الدرجة والمكانة السامية، وقد بذل جهده في الإحتفاظ بهذه المكانة، فتمتّعت البلاد بشيئ كثير من الرفاهية، حتى إننا لا نسمع في ذلك العهد تذمراً أو سخطاً من جانب المصريين مما يدلّ على أنه كان محبوباً لدى رعيته(٣).

(١) إبن إياس، محمد بن احمد الحنفي المصري، "ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٣م" المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٣٣. وأبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٤، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٧٢م، ص٦ .

(٢) ابن إياس، المصدر السابق، ص٣٢. وكيرة، نجوى كمال (دكتورة) الجواري والغلمان في مصر، في العصرين الفاطمي والأيوبي (٣٥٨-٦٤٨هـ/٩٦٩-١٢٥٠م) مكتبة زهراء الشرق،القاهرة، ٢٠٠٧م، ص١٣٤.

(٣) حسن، تاريخ الدولة الفاطمية في مصر، مرجع سابق، ص١٢٥.

وبالتالي فإن عهد كافور لم يخل من حسنات، فقد ظهرت في عهده نهضة أدبية وعلمية، فظهر عدد من الفقهاء والأدباء والمؤلفين والشعراء، كان من أبرزهم القاضي أبي بكر بن الحدّاد وتلميذه محمد بن موسى المعروف باسم سيبويه المصري وأبي عمر الكندي والحسن بن زولاق[١].

المتنبي وكافور الأخشيدي:

من الشعراء الذين مدحوه أبي الطيب المتنبي أحمد بن الحسين أشهر شعراء عصره، فارق سيف الدولة الحمداني مغاضباً وقصد مصر، وأقام بها أربع سنوات، وامتدح كافوراً بأحسن المدائح طمعاً في أن يولّيه بعض أعمال مصر، فخلع كافور عليه وأنزله في داره، وعيّن جماعة لخدمته، وحمل عليه كثيراً من المال، ولكنه لم يولّه عملاً من الأعمال معتذراً بأنه لا يستطيع أن يولّي رجلاً يدّعي النبوة، فانقلب مدح أبي الطيب هجاء، كما أسرف في مدحه من قبل، ويكفي أن قصائد المتنبي في مدح كافور قد خلّدت ذكره بأكثر مما خلّدته أعماله بكثير[٢].

ومما قاله المتنبي في مدح كافور:

وأخلاق كافور إذا شئت مدحه
وإن لم أشأ على علي واكتب
إذا ترك الإنسان أهلاً وراءه
ويمّم كافوراً فما يتغرب
فتى يملأ الأحلام رأياً وحكمة
ونادرة أحياناً يرضى ويغضب
إذا ضربت في الحرب بالسيف كفّه
تبينت أن السيف بالكف يضرب

(١) العدوي، ابراهيم احمد "دكتور" التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، مكتبة الأنجلوا المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م، ص٣٤٠- ٣٤١.

(٢) النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب، (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٣م)، نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٣٠٦.وخضر، محمد أحمد (مستشار) حقوق الإنسان عبر التاريخ من العصر الفرعوني إلى العصر الحديث مروراً بالتاريخ الإسلامي والتاريخ الأوربي، مؤسسة الطوبجي للتجارة والطباعة والنشر، القاهرة،٢٠١٠م، ص٣٢٨.

تزيد عطاياه على الليث كثـرة
وتبيت أمواه السحاب فتنـصب
أبا المسك هل في الكأس فضل أناله
فأني أغنى منذ حين وتـشرب[١].

ولما لم ينل المتنبي ما كان يطمع فيه من مناصب، نظم قصيدته الداليّة المشهورة التي هجا فيها كافور ومطلعها:

عيد بأية حال عدت يا عـيد
بما مضى أم لأمر فيك تجديد
جود الرجال من الأيدي وجودهم
من اللسان فلا كانوا ولا الجود
لا تشتري العبد إلا والعصا معه
إن العبيد لأنجاس منا كـيد
من علّم الأسود المخصي مكرمة
أقوامه البيض أم أباؤه الصـيد
من كل رحو وكاء البطن منفتق
لا في الرجال ولا النساء معدود
أكلما اغتال عبد السوء سيده
أو خانه فله في مصر تمهـيد
صار الخصي إمام الآبقين بها
فالحرّ مستعبد والعبد معـبود
العبد ليس الحر صالح باخ
لو أنه في ثياب الخز مـولود
ما كنت أحسبني أحيا إلى زمن
يسيئ بي فيه كلب وهو محمود[٢]

(١) عطا الله، خضر احمد "دكتور" الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٤ – ٢٥.
(٢) الثعالبي، أبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج١، شرح وتحقيق الدكتور مفيد محمد قمحة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص٦٦.

ويقال أن المتنبي هرب من مصر في نفس الليلة خوفاً من بطش كافور، وقد كان كافور عالي الهمة عارفاً بأقدار العلماء والوجوه والأشراف، وقد روى أبي جعفر مسلم بن عبد الله بن طاهر الشريف العلوي، أنه بينما كان كافور راكباً في موكبه يوماً إذ سقط سوطه فناوله الشريف إياه فقبّل كافور يده، وقال له: " نعيت إليَ نفسي " فما بعد أن ناولني ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطي غاية يتشرف لها، وفي رواية أخرى " أن كافوراً ردَ على الشريف بقوله: أيها الشريف أعوذ بالله من بلوغ الغاية، ما ظننت أن الزمان يبلغني حتى يفعل بي هذا، وكاد يبكي. فلما بلغ كافور داره أمر بالبغال لترسل إلى الشريف، فحملت من العطايا ما يربو ثمنها على خمسة عشر ألف دينار"(١).

صفات كافور:

وقد كان كافور مثقفاً، وله نظر في العربية والأدب والعلم، وأن عدداً من أفاضل العلماء عمل له، وممن كان في خدمته أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله النحوي صاحب الزجاج، وقد كان بارعاً في فنون القتال، وكان يجلس صباحاً ومساءاً لقضاء حوائج الناس، ويتهجّد ويمرّغ وجهه ساجداً ويقول: (اللهم لا تسلّط عليّ مخلوقاً) وكان كافور يستمع في الليل إلى تاريخ الدولتين الأموية والعباسية، وإلى قصائد الشعراء والغناء(٢).

كما كان كافور عجباً في العقل والشجاعة، واشتهر بكثير من صفات الزعامة التي أهلته لتبوّء مركز الصدارة في الإمارة على الرغم من أصله الوضيع، من هذه الصفات: معرفته بطبائع الناس وأساليب معاملتهم، واصطناع الحلم حيناً وإظهار الغضب حيناً آخر، والتوفيق بين الآراء المختلفة، وقدرته على استقطاب الناس، كما أنه خبيراً بالسياسة، فطناً، ذكيّاً، جيّد العقل، داهية، وكان كافور يحتفظ بصداقة كل من الخليفة العباسي السنّي والخليفة الفاطمي الشيعي، كما كان يهادن المعز

(١) حسن، تاريخ الدولة الفاطمية، مرجع سبق ذكره، ص١٢٧.

(٢) عطا الله، خضر أحمد(دكتور)الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٢٧.

صاحب المغرب ويظهر ميله إليه، وكذا يذعن بالطاعة لبني العباس، ويداري ويخادع هؤلاء وهؤلاء[١].

حاول المعز لدين الله الفاطمي في عهد كافور فتح مصر، وكان قد أخفق في ذلك المهدي والقائم والمنصور، ووصل المعز إلى واحات مصر، فبعث إليه كافور جيشاً صدّه عن مصر ولكن هذه الحملة وإن فشلت عسكرياً إلا أنها نجحت في نشر المذهب الشيعي الفاطمي، فقد أحسن كافور إستقبال الدعاة الفاطميين، ولكنه لم يسمح بانتشار المذهب الشيعي على نطاق واسع[٢].

وفاة كافور الأخشيدي:

توفي كافور بمصر في شهر جمادى الأولى سنة (٣٥٧هـ/٩٦٧م)، وعاش بضعاً وستين سنة. وكانت إمارته على مصر ثلاثاً وعشرين سنة، إستقل فيها بالحكم لمدة عامين وأربعة أشهر، خطب له فيها على منابر مصر والشام والحجاز والثغور، مثل طرسوس والمصيصة وغيرهما، وحمل تابوته إلى القدس فدفن به، وكتب على قبره:

مابال قبرك يا كافور منفرداً
بالصَحصح المرت بعد العسكر اللَجب
يدوس قبرك آحاد الرجال وقد
كانت أسود الشرى تخشاك في الكتب

وأيضاً قصيدة:

انظر إلى غير الأيام ما صنعت
أفنت أناساً بها كانوا وما فنيت
دنياهم ضحكت أيام دولتهم
حتى إذا فنيت ناحت لهم وبكت[٣]

(١) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، مصدر سابق ، ج٤ ، ص٦. وطقوش، تاريخ الطولونيين والأخشيديين والحمدانيين، مرجع سبق ذكره، ص ١٨١.

(٢) سيديو ، ل.أ، تاريخ العرب العام ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، دار العالم العربي ، ط١ ، ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م ، ص ٢٤٤.

(٣) الفقي ، عصام الدين عبد الرؤوف ، "دكتور" معالم تاريخ الاسلام ، مكتبة الفلاح ، الكويت ط١ ، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ، ص٢٥٨.

وبعد وفاة كافور إختار الجند أبا الفوارس أحمد بن علي بن الأخشيد حاكماً لمصر، وكان طفلاً في الحادية عشر من عمره، ولذا عيّن الجند الحسن بن عبيدالله بن طغج والي الشام وصياً عليه، فاستبد الحسن بالسلطة، وقبض على الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات• وسجنه وساءت سياسته، فاضطره المصريون إلى الفرار ناحية الشام، وعاد جعفر بن الفضل بن الفرات إلى الوزارة، فساءت الأحوال في عهده، وانتشر القحط والغلاء والفوضى(١).

• جعفر بن الفضل بن الفرات (وزير كافور) المعروف بابن حنزابة كانت له دار للأفاعي والحيّات والعقارب، لها قيّم وحاو من الحواة ومعه مستخدمون. أنظر: شوقي ضيف (دكتور)، عصر الدول والامارات، دار المعارف، القاهرة،ط١٩٩٠،٤م، ص ٤٨.

(١) الفقي ، المرجع السابق ، نفس الصفحة .

خاتمــة

استبد كافور بالأمور دون ولدي الأخشيد، أبي القاسم أنوجور(٣٣٤-٣٤٩هـ/٩١٦-٩٦٠م) وأبي الحسن علي (٣٤٩-٣٥٥هـ/٩٦٠-٩٦٦م)، ومع ذلك استطاع كافور أن يقضي على الثورات التي قامت في ذلك العهد (٣٣٤-٣٥٥هـ/٩١٦-٩٦٦م)، كماانتصر على الحمدانيين في الشام.

ولم يكد كافور يستقل بحكم مصر وما يليها من البلاد في سنة (٣٥٥هـ/٩٦٦م)، حتى أخذ المعز لدين الله الفاطمي يعد العدة لفتح مصر، وساعده على ذلك ما ساد هذه البلاد من الإضطراب، فانقسم الجند على أنفسهم إلى فريقين: فريق الأخشيدية الذين يناصرون بيت الأخشيد، وفريق الكافورية الذين يتشيعون لكافور، فأرسل المعز عسكره من المغرب إلى الواحات، فجهز كافور إليه جيشاً أخرجوا العسكر وقتلوا منهم، كما اجتاحت المجاعة مصر، وطمع القرامطة في بلاد الشام، فهاجموها مرتين في سنتي (٣٥٣و٣٥٧هـ/٩٦٤-٩٦٧) وقد أدرك كافور قبل موته (في جمادى الأولى سنة ٣٥٧هـ/٩٦٧) ما أصاب البلاد من نكبات، فقد اشتد الغلاء وفشا الموت في الناس، حتى عجزوا عن تكفينهم ومواراتهم، وأرجف بمسير القرامطة إلى الشام، وبدت غلمانه تتنكر له، لعدم دفع رواتبهم، وطمع أحد أمراء النوبة في مصر الجنوبية فغزاها، حتى وصل إلى إخميم ولم يجد من يقف في وجهه، وعاد إلى بلاده محملاً بالأسلاب والغنائم.

وقد استمرت هذه الحالة السيئة بعد وفاة كافور، واضطربت أحوال مصر السياسية، فلم يكن الخليفة العباسي المطيع بالله (٣٣٤-٣٦٣ه/٩١٦-٩٧٣) من القوة بحيث يستطيع من يولي على مصر من يشاء، لذلك اجتمع رجال البلاط الأخشيدي لاختيار شخص تتفق ميوله مع مشاربهم، فوقع الإختيار على أبي الفوارس أحمد بن علي الأخشيد، ولم يكن قد تجاوز الحادية عشر من عمره، وجعل الحسن بن عبيدالله بن طغج ولي عهده وخليفته.

النتائج:

١- أن أنوجور قد أظهر سخطه على كافور، وبدأ الجفاء بينهما واضحاً، وخرج من الفسطاط إلى الرملة، وذلك استعداداً للتصدي لطموح كافور وعزله من مناصبه، واستعادة السلطة، فتدخلت أمّ أنوجور في الأمر، بعد أن شعرت بأن ابنها لا يستطيع التغلب على كافور، وخشيت عليه من بطشه.

٢- كما أن كافور اتهم بدس السم لعلي بن الأخشيد كما فعل مع أخيه أنوجور من قبل.

٣- كما أن إمارة كافور على مصر كانت اثنتين وعشرين سنة، منها سنتان وأربعة أشهر استقل فيها بالملك.

٤- وبعد وفاة الأخشيد أضحت مقاليد الأمور كلها بيده، وظلّ الحاكم المطلق في البلاد حتى وفاة علي بن الأخشيد، حيث آل الحكم إليه بفعل صغر سن أحمد بن علي بن الأخشيد.

٥- وحرص كافور على أن يكون بلاطه ملتقى العلماء والأدباء والشعراء الذين توافدوا عليه من جميع الأنحاء.

٦- وكان كافور خبيراً بالسياسة، فطناً، ذكيّاً، وكان بارعاً في فنون القتال.

المصادر والمراجع

١- ابن اياس، محمد بن أحمد الحنفي المصري (ت٩٣٠هـ/١٥٢٣م): المختار من بدائع الزهور في وقائع الدهور، مطابع الشعب، القاهرة، ١٩٦٠م.

٢- ابن خلكان، أبي العباس شمس الدين أحمد إبراهيم بن أبي بكر الشافعي (ت٦٨١هـ/١٢٨٢م): وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، ج، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٧٧م.

٣- ابن سعيد، علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م): المغرب في حلى المغرب، تحقيق زكي محمد حسن وسيدة إسماعيل كاشف وشوقي ضيف، جامعة فؤاد الأول، القاهرة، ١٩٥٣م.

٤- إبن كثير، أبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي(٧٧٤هـ/١٣٧٢م) البداية والنهاية، دقق أصوله وحققه دكتور أحمد أبي ملحم ودكتور علي نجيب عطوي والأستاذ فؤاد السيد والأستاذ مهدي ناصرالدين والأستاذ علي عبدالساتر، دارالكتب العلمية، بيروت، لبنان،ج١٩٧٧،١م.

٥- ابو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي (ت٨٧٤هـ/١٤٦٩م): النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٧٢م.

٦- الأنطاكي، يحي بن سعيد(ت) تاريخ الأنطاكي، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، طرابلس، لبنان، ١٩٩٠م.

٧- الثعالبي، أبي منصور عبدالملك الثعالبي النيسابوري (ت٤٢٩هـ): لطائف المعارف،تحقيق إبراهيم الإبياري وحسن كامل الصيرفي، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦٠.

٨- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م): المواعظ والإعتبار في ذكر الخطط والآثار، مطبعة بولاق، القاهرة، ج١، ١٢٧٠هـ.

٩- .....: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق دكتور جمال الدين الشيال، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٦٧م.

١٠- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب (ت٧٣٣هـ/١٣٣٣م): نهاية الأرب في فنون الادب، ج٢، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٨٠م.

١١- الخربوطلي، علي حسني (دكتور): مصر العربية الإسلامية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، دت.

١٢- العدوي، ابراهيم احمد (دكتور): التاريخ الإسلامي آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، مكتبة الأنجلوا المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م .

١٣- الفقي: عصام الدين عبد الرؤوف، معالم تاريخ الإسلام، مكتبة الفلاح، الكويت، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٤- حسن، حسن إبراهيم (دكتور): تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٤، ١٩٨١م.

١٥- ..... تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والإجتماعي، ج٣، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦م .

١٦- حسن، علي إبراهيم (دكتور): مصر في العصور الوسطى من الفتح العربي الى الفتح العثماني، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط٥، ١٩٦٤م.

١٧- خضر، محمد أحمد "مستشار" حقوق الإنسان عبر التاريخ من العصر الفرعوني إلى العصر الحديث مروراً بالتاريخ الإسلامي والتاريخ الأوربي، مؤسسة الطوبجي للتجارة والطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠١٠م.

١٨- زيود، محمد أحمد،العلاقات بين الشام ومصر في العهدين الطولوني والأخشيدي، دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، ط١، ١٩٨٩م.

١٩- شوقي ضيف (دكتور): عصر الدول والامارات، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٠م.

٢٠- طقوش، محمد سهيل (دكتور): تاريخ الطولونيين والاخشيديين والحمدانيين، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٨م.

٢١- عطاالله، خضر أحمد (دكتور): الحياة الفكرية في مصر في العصر الفاطمي، دارالفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م.

٢٢- كاشف، سيدة إسماعيل، (دكتورة): مصر في عصر الأخشيدين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٩م .

٢٣- كرد علي، خطط الشام، دمشق، ١٩٣٨م.

٢٤- كيرة، نجوى كمال (دكتورة) الجواري والغلمان في مصر في العصرين الفاطمي والأيوبي(٣٥٨-٩٤٨هـ/٩٦٩-١٢٥٠م) مطبعة زهراء الشرق، القاهرة، ٢٠٠٧م.

المراجع المترجمة:

٢٥- سيديو، ل، أ: تاريخ العرب العام، نقله الى العربية عادل زعتر، دار العالم العربي، ط١، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.